

حقاني..
العالم الفقيه والمجاهد المجدد
(الحلقة 37)

أ. مصطفى حامد (أبوالوليد المصري)

♦ خلال العملية اتصل بي حقاني مرتين؛ المرة الأولى بعد يوم من نكسة الهجوم الفاشل من جهة تورغار، وكان يَطْمَئِن على الوضع من جهتنا.

♦ في الاتصال الثاني سألني حقاني: «لماذا لم تتقدموا إلى الأمام، فجميع الوحدات قد تقدمت». كان السؤال في وقت انتصار، يقاس فيه النجاح بمقدار التقدم على الأرض.

♦ علاقة حقاني مع السلطات الباكستانية كانت في أسوأ حالاتها. وذكرنا حالة الجفاء بينه وبين الجنرال «أسد دوراني» رئيس جهاز الاستخبارات ISI.

♦ قال الجنرال «صلح أمل» إن الرئيس نجيب الله أرسله إلى خوست لمحاولة إنقاذ الوضع. ولكنه بعد أن شاهد ما يحدث أدرك أنه لا أمل، وأثنى على كفاءة حقاني كقائد عسكري متمكن.

♦ من المفارقات أنه عندما تدنى مخزون الذخائر لدينا إلى حد الخطورة تزايدت نسبة إصاباتنا لطائرات العدو. وكان ذلك من التوفيق الإلهي الذي يصعب تفسيره ماديًا.

♦ أحد الصواريخ الضخمة التي تحمل الصواريخ الثانوية للعنقودي سقط قريبًا جدًا من الراجمة، كان جبلًا صغيرًا من الفولاذ. أبو خبيب كان قريبًا من الحادث ونجا منه بأعجوبة. فكان يضحك ويقول إنه سيبيع ذلك «الشيء» ويشتري بثمنه حلوى لأفراد الراجمة.

حورات مع القمم العسكرية لنظام كابل

انتهى عملنا ضد المطار الجديد مع فتح مدينة خوست. فحاولت طائرة للعدو أن تهرب في الصباح. لكن تم إيقافها برماية الراجمات والمدفعية. وهكذا تم أسر جنرال طيار كان يقود الطائرة، وأسر الجنرال "صلح أمل" المستشار العسكري لرئيس الجمهورية.

- بعد الفتح أجريت على انفراد أحاديث مطولة مع الجنرالين الأسيرين. مع الأول - جنرال طيار - كانت حول وضع سلاح الجو، وعمليات إغلاق المطارين القديم والجديد. كان من أهم ما علمته منه أن السوفييت طالبوا حكومة كابول عدم التخلي عن المطار القديم مهما كان الثمن، وعرضوا تعويض خسائرها من الطائرات بشكل فوري بطائرات جديدة من أحدث طراز. ثم أعطاني أرقام خسائرهم في الطائرات فكانت مطابقة لما لدينا من أرقام بالنسبة للطائرات التي أحرقت على المدرج وهي(14طائرة) - أما التالفة بشكل دائم فقال إنها عشر طائرات تمكنت من الطيران إلى كابول للإصلاح. ولكنها ما زالت رابضة هناك لأن إصاباتها كانت عسيرة الإصلاح وبهذا تكون نتائج العملية هي تدمير وإتلاف 24 طائرة نقل عسكرية، وهو رقم كبير جدًا بمعايير وقتنا ذاك. (استغرقت العملية 28 ليلة).

سألته عن السر وراء شجاعة الطيارين وهبوطهم في المطار رغم القصف الشديد وتعرضهم للإصابة فقال: "إنهم يتوكلون على الله!". ضحكت وسألته إن كانوا يتعاطون خمورا أو مخدرات، فنفى ذلك، وقال أنه ممنوع حسب القوانين، ولكننا ندفع لهم مكافآت كبيرة خاصة في مهامتهم في خوست. ثم سألته كيف يتم تكليف جنرال مثله في مهمة خطيرة كهذه؟ أليس هناك طيارون شباب؟ لم أظفر منه بإجابة شافية. ولكني استنتجت أن خطورة المهمة لم تجد أحد ينفذها سوى صاحب هذه الرتبة الكبيرة. خاصة وأن المهمة هي، على ما يظهر، كانت إنقاذ عدد كبير من الجنرالات الكبار في الجيش والاستخبارات من الوقوع في الأسر.

لقد نجا عدد من هؤلاء وسقط آخرون في الأسر.

"صلح أمل"الجنرال المستشار:

أما الجنرال "صلح أمل" فكان أكثر عمقًا في إدراكه للأمور. بدأ مهتزاً قليلا، ثم تمالك نفسه وحافظ على ابتسامته الدائمة طوال حديثه معنا. كان من القوات الخاصة، ودرس في كلية أركان حرب في مصر لفترة، وزار "خط بارليف" على قناة السويس.

كان يعمل مستشارًا عسكريًا لرئيس الجمهورية - وفي ظني أنه منصب شرفي الهدف منه إبعاد شخص ما عن الاحتكاك المباشر بالجيش نتجة الشك في توجهاته السياسية، فيتم ترقيته شكليا وإضعافه عمليا، فيما يطلق عليه في دول العالم الثالث "ركلة إلى أعلى". لم أسأله عن ذلك لكن سألته عن سبب قدومه إلى خوست في ذلك الوقت المتأخر بعد أن وصل الوضع إلى درجة ميئوس منها. فقال أن الرئيس نجيب الله أرسله إلى خوست لمحاولة إنقاذ الوضع بأي طريقة. ولكنه بعد أن وصل وشاهد ما يحدث أدرك أنه لا أمل. ثم شرح لي كيف دارت العمليات من طرفهم " الجيش الحكومي"، وأثنى على كفاءة حقاني كقائد عسكري متمكن، وأبدى إعجابه به – { وبالفعل فقد تعاون مع حقاني في عمليات جرديز التي حدثت في الخريف من نفس العام وكان يعرف كل الضباط الكبار هناك وفي كابول، ودعاهم إلى الاستسلام لأن الحرب قد حسمت نتائجها بسقوط خوست.

وبعد فتح جرديز " في إبريل 1992" كنت أراه يسير مع حقاني وسط مساعديه وهو مسلح برشاش خفيف أهداه له حقاني}.

سألت الجنرال "صلح أمل " عن استنتاجاته من حرب أفغانستان. فقال بأن تلك الحرب أثبتت أن "العنصر الاجتماعي" في الحرب أكثر أهمية من كل العناصر الأخرى الاستراتيجية والاقتصادية. من جانبي فهمت أنه يقصد، موقف الشعب، والعنصر البشري الذى يتضمن الجوانب المعنوية مثل الإيمان والتصميم والشجاعة. لذا وافقت على ملاحظته وأعجبت بها.

عودة الحمار الضال

قوة الدعاء فعالة ضد كل ما يعجز الإنسان عن مواجهته أو التعامل معه، ليس فقط الطائرات والصواريخ ونيران العدو، بل أيضا ضد كائنات يصعب التفاهم معها، كما حدث لي مرة مع حمار المجموعة وكلاب البدو عندما تحالفوا ضدي.

بدأت القصة في الصباح الباكر ليوم الأثنين الأول من رمضان (17 مارس) والأول لبداية العمليات. فقد تأكد حاجي إبراهيم عبر متابعاته اللاسلكية أن العمليات قد بدأت في ماليزي وأن المجاهدين استولوا على سلسلة الجبال المعادية المواجهة لهم هناك.

كان السحاب منطبقا على الأرض، والمطر ينزل متهاديا ثم بدأ يزداد. كنت قلقا بشكل خاص على مجموعة راجمة أبوهمام (قريبة جدا من مواقع العدو فوق جبل كوكاراك)، فالاتصال بهم سيصبح صعبًا بسبب نزول الأمطار وتحول الأرض الزراعية المهجورة فيما بيننا وبينهم إلى برك من الطين المتحرك القادر على ابتلاع السيارة حتى منتصفها أحيانًا، فإذا أضيف إلى ذلك الغارات الجوية المتوقع زيادتها أثناء العمليات، ناهيك عن دبابة ومدفعية جبل كوكاراك الذي يكشف جزءاً لا بأس به من الطريق المتجه نحو موقع الراجمة، كل ذلك قد يعزل الراجمة وطاقمها ثم يوقفهم عن العمل وربما تعرضوا إلى تسلل أراضي من العدو قد يؤدي إلى أسرهم خاصة وهم على خط التماس الأول لمنطقة "المجاهدين".

– باستخدام سيارتنا بدأت مجموعة بقيادة الشاب المقدام

"أبوطارق التونسي" في تزويد مجموعة أبو همام بأكبر قدر من الذخائر والأطعمة على قدر احتمال مغارتهم الصغيرة.

ـ مجموعة ثانية كان عليها مساعدة طاقم "الجماعة الإسلامية" في نقل ذخائر ومهمات أخرى من مغارة التموين القريبة إلى موقع الراجمة.

وعند فراغ أبو طارق من مهمته ينتقلون معه لنقل مهمات من مركزنا الرئيسي على نهر شمل أي مركز "النصف نعل" إلى مغارتنا القريبة. كان لدينا حماران صغيران يعملان ضمن "سلاح النقليات". أحدهما ذهب مع جماعة الإمداد والتموين، والآخر بقي معنا لتزويد مغارة الترصد المعلقة بالمياه. وكانت تلك هي مهمتي لذلك اليوم؛ إذ لم يتبق غيري فوق الجبل، وحتى بندقيتي أخذوها نظراً للعجز الكبير في التسليح الفردي للمجموعة. ولما كنت مزودا "بمطواة قرن غزال" فقد كانت تكفيني في ظروف المعارك الكبيرة، فتنازلت عن بندقيتي لأحد الشباب الجدد.

نزلت إلى الوادي مع حماري وملأت صفيحتى الماء وربطتهما على ظهر الحمار، واستدرت عائدًا. كان الوادي خاليا والمطر يتزايد.

مضارب البدو بدت كأنها مهجورة، وقد جمعوا الماشية والأغنام في ساحة واسعة لها سور منخفض من الأحجار. كانت أصوات الانفجارات تأتي خافته من جهة ماليزي. حاولت الإسراع بحماري صوب مغارتنا المعلقة لمتابعة ما يحدث. لكن الحمار كان له رأي آخر، لقد رمى الحمولة وسار منفردًا. أوقفته وأعدت تحميله، ولكنه مرة أخرى رمى الحمولة وفر هاربا. عدوت خلفه حتى فناء أغنام البدو. اندفع الحمار داخل الفناء وتوقف بين الأغنام. سادت الفوضى وصاحت الأغنام وهي تجري في كل اتجاه. إنتَبَهَت كلاب الحراسة إلى أن حدثا جللا يجري، وبدون أي تدقيق في الأمر اعتبروني المسؤول عما يحدث للقطيع. كنت واقفا على باب الفناء، فتقدم كلبان نحوي ينبحان بغضب كاشفان عن أسنان لامعة تبرق مثل الخناجر المسنونة.

أضطررت إلى "التقهقر التكتيكي". فواصلا الضغط حتى أوصلاني إلى مسافة آمنة بعيدًا عن الباب. كان كل منهما في حجم حمارنا أو أكبر قليلا. جلست بيأس على كومة من الأحجار أفكر فيما ينبغي عمله. والكلبان واقفان ينبحان بغضب وتصميم على بوابة الساحة.

المطر يتزايد وكذلك أصوات الإنفجارات، والوادي من حولي خال تمامًا من البشر. لا أستطيع المكوث هنا طويلًا، ولا أستطيع العودة بلا ماء ولا أستطيع ترك الحمار هنا فقد لا نراه مرة أخرى.. فما العمل؟. قررت أن أدعو "دعاء الضالة". دعوت وجلست أنتظر الفرج، وما هي إلا دقائق حتى تحققت المعجزة.

خرج الحمار من ساحة الأغنام وتقدم نحوي مطأطئ الرأس كالمعتذر، والكلبان ينبحان خلفه وكأنهم يقولان له : "ارجع يا مجنون". لكنه لم يرجع ووقف أمامي منكسراً.

لم أصدق ما يحدث أمامي. فلم أوجه للحمار العائد أي لوم، وسحبته بهدوء إلى أوعية الماء فحملها مشكورا حتى أسفل جبلنا. ثم أخذت منه الأوعية وأكملت بها الصعود إلى المغارة في قمة الجبل.

مصاعب العملية

ـ ذكرت أن إنجازنا في عملية "المطار الجديد " كان إحراق ست طائرات نقل عسكرية على مدرج المطار، وأسر طائرة نقل عسكرية يقودها جنرال طيار.

كنت أشعر أن الإنجاز كان أقل كثيرًا من المطلوب وقد ذكرنا الأسباب في موضع سابق وهي:

ـ قلة الذخائر إلى درجة كبيرة.

ـ قلة عدد الراجمات.

ـ مواضع الراجمات لم تكن مثالية بالنسبة لمدرج المطار. ولكننا أجبرنا عليها بحكم الظروف.

ـ اضطرارنا لتقديم دعم بالنيران لعمليات أرضية ليست ضمن برنامجنا. كما حدث في ماليزي مع البدو وكما حدث مرتين حينما وقعت مجموعات "للمجاهدين" تحتوي عربًا فيما يشبه الكمين وكانوا إلى الشمال من مواقعنا ـ وسنذكر ذلك لاحقا. وشكل ذلك عبئا على ذخائرنا القليلة جدا.



وكما ذكرنا فإن إمدادنا بالذخائر كان صعبًا بالنسبة لظروف الفيضانات في نهر شمل وبالنسبة لأن "القاعدة" قد توقفت تقريبًا عن إمدادنا بالذخائر. كما أن حقاني أمدنا بصعوبة بعدة مئات من الصواريخ تعرض الكثير منها إلى "المصادرة" على يد "إبراهيم" شقيق حقاني، الذي صادفها في الطريق فقرر أخذها لكونه في أشد الحاجة إليها وكانت ثلاثمئة صاروخ..وهكذا.

- أسوأ الأمور كان ضعف المعلومات، لاعتمادنا على أنفسنا من نقطة الترصد الوحيدة لدينا. وكان العدو يشوش دومًا على أصوات الطائرة باستخدام طائراته في الجو أثناء عملية الهبوط - وبالنسبة للرؤية فكانت مستحيلة في الأوقات المظلمة من الليل - وغياب التصنت اللاسلكي أثر كثيرًا على كمية المعلومات الموثوقة لدينا.

- بدأ اشتراكنا الفعلي في العمل ضد المطار في ليلة اليوم الثالث للمعارك.

في تلك الليلة والتي تليها لم نحقق أي إصابة واضحة رغم أننا ضربنا بكثافة لم نكررها فيما بعد نتيجة قلة الذخائر. كنا نقاتل مغمضي الأعين نتيجة ضعف المعلومات، فبدأت تظهر الخلافات داخل مجموعتنا للترصد وإدارة النيران. المكونة مني ومن أبوكنعان وحاجي إبراهيم. ولم يكن ذلك مألوفا لدينا بالمرة.

لكن في اليوم الخامس للمعارك انفجرت أول طائرات العدو، فعادت الأمور داخل مجموعتنا إلى مجراها الطبيعي، وارتفعت المعنويات وعادت الثقة بالنفس.

دجاج على أسنة الرماح

حاجي إبراهيم كان يمارس عمله على أفضل صورة فكان دائم الاتصال لاسلكيًا مع مجموعات المجاهدين، سواء على قطع المدفعية أو في العمليات الأرضية أو البدو أو إخواننا من العرب في جماعة أبو الحارث.

لذا كان لدينا فكرة جيدة عما يدور حولنا على كافة محاور العمليات. فكنت يوميًا أنزل من مغارتنا "القريبة من قمة جبل الترصد" إلى الأسفل كي أطوف بمراكزنا القريبة، وأولها مغارة رئيسية للمبيت ولتخزين المهمات، وفيها شباب الإداريات والحراسات، ثم هناك راجمة "الجماعة الاسلامية". فكنت أنقل إليهم أخبار العمليات الأرضية ونتائج اشتباكاتنا الليلية، وتكتيكات العدو فيها والتغييرات الجديدة التي سنجريها على عملنا طبقا لتطورات عمل العدو، وأزمة الذخائر المزمنة لدينا.

كنت أزور الراجمة الأخرى التي يديرها "أبوهمام" فكانت الرحلة إليها لطيفة جدا إذ كانت على الأقدام عبر الجبل وليس رحلة دائرية بالسيارة. كنا نسير على امتداد السلسلة التي عليها الترصد ثم نهبط إلى الوادي خلفها عبر مدق جبلي متعرج من صناعة "مجموعات" المنطقة.

كان طاقم الراجمة يعيش في منطقة منعزلة يمر بها المجاهدون أحيانا. فكنا نقضي معهم وقتا ريفيا ممتعا مع أكواب الشاي الأسود والخبز اليابس في وجبة ساحرة يعدها دوما ذلك الشاب الملائكي "أبو خبيب". كنا نفتش معهم آثار القصف الجوي عليهم في الليلة السابقة، وبعضه كان قريبا وخطيرا. كنا نفحص الشظايا لنرى أنواع القذائف. بعضها كان جديدا حتى أننا أحصينا عدة أنواع من القذائف العنقودية ظهرت لأول مرة في المعارك.

أحد الصواريخ الضخمة التي تحمل الصواريخ الثانوية للعنقودي سقط قريبًا جدًا من الراجمة. كان جبلا صغيرا من الفولاذ. كان أبو خبيب قريبا من موضع الحادث ونجا منه بأعجوبة. فكان يضحك ويقول أنه سيبيع ذلك "الشيىء" ويشتري بثمنه حلوى لأفراد الراجمة.

كان "أبو خبيب" محقا فقد كان الطعام لدينا فقيرا جدا، نتيجة عزلتنا وحصارنا بالنهر الهائج. وأيضا لأنه مع اشتداد المعارك وتوسع ساحة المعركة، يصبح الإمداد عسيراً وقليلاً.

في المرحلة الثانية من المعركة (بعد الوقفة التعبودية) ظهرت غنائم كثيرة جدا فى أيدي سكان المنطقة من الإخوة "المتربصين"، ومن بدو المنطقة الذين تكاثروا تدريجيا، ولم يكونوا من المقاتلين ولكن رعاة عاديين، وبعضهم احترف تجارة الخردة وصار لهم مخزونا ضخما جدا على حافة منطقتنا بعيدا عن العمليات.

من ضمن ما ظهر في الأيدي كان "الدجاج". فكانت "الغنائم " منه كثيرة وليس هناك مشترون فكانت الأسعار رخيصة جدا. فرح شبابنا بذلك وطالبوا بشراء كمية من الدجاج لتحسين الحالة الغذائية المتردية لدينا.

قلت لهم أننا لن تشتري دجاجاً مسروقاً، فهو من الغنائم التي لم تقسم بين المجاهدين فهي إذن غلولاً محرماً.

وقع الشباب في ورطة وحاولوا إيجاد مخرج، فقالوا لي إن البدو عندهم دجاج ليس من الغلول فلنشتر منهم.

أخيرًا أذعنت على شرط أن يسألوهم أولا إن كان الدجاج من "الغنائم " أم هو ملك لهم.

ذهب الشباب إلى مضارب البدو، وعادوا محملين بالدجاج وقالوا وقد غمرتهم البهجة أنهم سألوا البدو فأكدوا أن الدجاج لهم. لم أشأ أن أدقق أكثر من ذلك، فنظرات الشباب إلى الدجاج توحي بأنهم لن يتخلوا عنه إلا على أسنة الرماح. فابتلعت شكوكي، ثم ابتلعت الدجاج معهم بعد ذلك.

- بالقرب من مركز راجمة أبوهمام، شاهدنا أول قطعة من السلاح الثقيل التي فاز بها "المتربصون". كانت قطعة رائعة مزجت بين التكنولوجيا السوفيتية "والتحايل الفني" للأفغان.

كانت عربة استطلاع مدرعة ثبتوا فوقها مدفع شلكا مضاد للطائرات. كان التثبيت بدائيا إلى حد ما ولكن الفكرة نفسها رائعة وكنت أتمنى أن نمتلك مثل ذلك السلاح.

ذهبنا لمعاينة المدرعة التي كانت في حراسة فتى في الخامسة عشر مسلح ببندقية كانت مهمته منع أي أحد

مـن مجـرد الاقتـراب مـن تلـك الغنيمـة.
ولكنـه شـعر بالخجل منـا وسـمح لنـا بالاقتـراب والتصويـر. صعـد أبوكنعـان فـوق المدرعـة والتقطـت لـه عـدة صـور كانـت إحداهـا غلافـاً لمجلـة "منبـع الجهـاد" التابعـة لحقانـي.
كان العجـز الدائـم فـي ذخائرنـا مـن الصواريـخ يجعلنـا فـي انشـغال مسـتمر فـي البحـث عـن بديـل أو سـلاح مسـاعد. وكانـت "الشـلكا" تـراود أحلامنـا طـول الوقـت. ولمـا وصلـت إلينـا مـن الغنائـم كان قدرهـا أن تكـون فـي أيـدي الخطافـة مـن "المتربصيـن" وليسـت فـي أيـدي المجاهدين.كنـا أيضـا نبحـث عـن الدبابـات لندفعهـا فـي معركـة المطـار - وسـنذكر تلـك المسـاعي لاحقـا.
- مـن المفارقـات أنـه عندمـا تدنـى مخـزون الذخائـر لدينـا إلـى حـد الخطـورة تزايـدت نسـبة إصاباتنـا فـي طائـرات العـدو. وكان ذلـك مـن التوفيـق الإلهـي الـذي يصعـب تفسـيره ماديـا.
بدأنـا فـي اسـتخدام الراجمـات كمـا لـو كانـت قـاذف فـردي للصواريـخ. أي نطلـق بهـا الصواريـخ واحـدا واحـد، وليـس بشـكل جماعـي كمـا كنـا نفعـل فـي الماضـي. وأيضًـا بدأنـا فـي اسـتخدام الراجمتيـن علـى انفـراد وليـس مجتمعتيـن. وأكثـر مـن ذلـك نطلـب مـن الراجمـة أن تطلـق مـن فوهتهـا رقـم كـذا، ولديهـا بالطبـع اثنـي عشـر فوهـة.
كان مـن المفـروض أن يكـون العـدو سـعيدًا بهـذا الضعـف الشـديد الـذي انتابنـا، ولكننـى أفتـرض أن العكـس هـو الـذي حـدث. فمـن ذا الـذي يتصـور أننـا بهـذه الطريقـة الواهنـة كنـا نصيـب ومـن الطلقـة الأولـى الطائـرة وهـي علـى مـدرج المطـار المظلـم أو الباهـت جـدا تحـت ضـوء قمـر.
لا يمكـن تفسـير ذلـك - ماديًـا- سـوى بكـون هـذه الصواريـخ ذكيـة أو موجهـة.
أمـا كونهـا ذكيـة فذلـك غيـر ممكـن لأن الصواريـخ لا تمتلـك قـدرات ذهنيـة يفتقـر إليهـا أصحابهـا. أمـا كونهـا موجهـة.. فمـن الـذي وجههـا؟.

"يا خيل الله اركبي"

- عندمـا اشـتدت عندنـا أزمـة الذخائـر، ارتفـع فـي المقابـل تحفزنـا الروحـي والمعنـوي.
فكان نـداء الاسـتعداد للرمايـة هـو نـداء "ياخيـل الله اركبـي"، أصـدح بـه فـي هـدأة الليـل مـن فـوق جبـل الترصـد. هـذه الجملـة البسـيطة كانـت تثيـر حماسـاً عجيبـا وحالـة روحيـة غيـر عاديـة، ومازالـت أذكـر صـوت "أبوهمـام" يأتـى علـى المخابـرة مـرددا:
"لبيـك اللهـم وسـعديك". ومـن خلـف راجمـة الجماعـة الإسـلامية تأتـي أصـوات التكبيـر والتهليـل.
والمدهـش كانـت الإسـتجابة السـريعة ومـن الطلقـة الأولـى مـع أصـوات وأضـواء الانفجـارات تأتـي مـن فـوق مـدرج المطـار. ليـزداد التكبيـر عندنـا خلـف الراجمـات وفـوق جبـل الترصـد ومـن باقـي المواقـع أينمـا كانـت، حتـى مـن عـرب أبـو الحـارث ومهاجمـي الخطـوط الأولـى.

بـدأت راجمـة الجماعـة الإسلامية ذلـك البرنامـج ثـم أدركتهـا راجمـة أبوهمـام فـي الليلـة التاليـة. وكلتاهمـا كان مُضَبَّطـا علـى منطقـة منتصـف المطـار حيـث كان قلـب المطـار متمثـلا فـي المبانـي الإداريـة ومنطقـة تفريـغ الطائـرات.
ولمـا تكدسـت الطائـرات المحترقـة فـي المنتصـف علـى الحافـة الشـمالية وصلتنـا معلومـة نـادرة مـن أحـد سـكان المنطقـة كان قريبًـا مـن المطـار ليـلا، وشـاهد العـدو قـد نقـل عمليـة التفريـغ إلـى حافـة المطـار المقابلـة لنـا. وكانـت راجماتنـا علـى اسـتقامة مـدرج المطـار مـع ميـل خفيـف لـكل منهمـا. ذلـك الميـل جعـل المسـاحة الممكـن الرمايـة عليهـا مـن كل راجمـة مسـاحة ضيقـة نسـبيا.
بدأنـا فـي النهـار إعـادة تضبيـط الراجمتيـن علـى منطقـة التفريـغ الجديـدة. كان لدينـا وقتهـا حوالـي سـتون قذيفـة فقـط وهـو مايعـادل اسـتهلاك إحـدى راجماتنـا فـي مشـروع المطـار القديـم فـي ليلـة واحـدة، اسـتهلكنا حوالـي سـتة عشـر قذيفـة بـدون أن نتمكـن مـن مجـرد الاقتـراب مـن الموضـع الجديـد. كانـت القذائـف طائشـة بشـكل غيـر طبيعـي.
شـعرت بالإحبـاط الشـديد لهـذا الفشـل. فقـد اسـتهلكنا ذخائـر نـادرة علـى لا شـيء. ويبـدو أن الفشـل سـيكون نصيبنـا فـي اشـتباك الليلـة إذا اسـتخدم العـدو تلـك الحافـة المواجهـة لنـا. فـي النصـف الثانـي مـن الليـل هبطـت طائـرة نقـل فـي المطـار. كان دليلنـا هـو الصـوت ولـم نكـن نعلـم يقينـا أيـن تقـف الطائـرة ولكـن قدرنـا أنهـا فـي المكـان الـذي أخبرونـا بـه علـى الطـرف المقابـل لنـا مـن المـدرج.
أبوهمـام أعلـن جهوزيتـه بشـعارة "لبيـك اللهـم وسـعديك" بعـد أن سـمع شـعار الاسـتنفار "ياخيـل الله اركبـي". طلبـت منـه أن يطلـق صاروخـا تجريبيـا بالفوهـة رقـم خمسـة، ففعـل وجلـس الجميـع فـي ترقـب ودعـاء متضـرع إلـى الله.
كنـت أرقـب المـدرج بالمنظـار فشـاهدت وميـض الألمنيـوم المشـتعل، لمـع فـي الفضـاء ثـم اختفـى. فتكلمـت مـع الراجمـات أن هنـاك احتمـال إصابـة فـى المطـار.. ولكـن علينـا الانتظـار للتأكـد. فـزادت الدعـوات الضارعـة وانتحـب البعـض. وبعـد ثـوان دوت الانفجـارات التـي لـم تـدع مجـالا للشـك أن طائـرة تحمـل ذخائـر قـد أصيبـت. فتعالـت التكبيـرات وسـجد الجميـع شـكرا لله.
طلـب طواقـم الراجمتيـن الصعـود علـى التـلال لمشـاهدة المنظـر بصـورة أوضـح. ومـن هنـاك ضجـوا بالتكبيـر وواصلـوا السـجود.
فـي الصبـاح كانـت المفاجـأه مذهلـة بالنسـبة لنـا. فقـد وجدنـا حطـام طائـرة محترقـة ومبعثـرة علـى الجانـب الشـمالى لمـدرج المطـار المواجـه لنـا. وهـذه المنطقـة فشـلنا فـي إصابتهـا فـي ضحـى الأمـس أثنـاء رماياتنـا التجريبيـة حتـى أصابنـا اليـأس. وهـا نحـن نصيبهـا فـي الظـلام ومـن الطلقـة الأولـى التـي شـطرت الطائـرة نصفيـن وأحرقتهـا بمـا فيهـا ومـن فيهـا. وقـد شـاهدناها بعـد عـدة أيـام حيـن تـم فتـح المدينـة. لـم يكـن عنـدي شـك أن ذلـك العمـل قـد تـم بقـوة الدعـاء وليـس بقـوة الصواريـخ.

حقاني: لماذا لا تتقدمون؟

خلال العملية كلها اتصل بي حقاني مرتين.

المرة الأولى بعد يوم من نكسة الهجوم الفاشل من جهة تورغار. كان يطمئن على الوضع من جهتنا. فأخبرته عن شيئين الأول حاجاتنا الشديدة إلى الذخائر. والثاني هو أن خط دفاع العدو المقابل لنا أصبح ضعيفا جدا بعد استسلام جبل كوكاراك وهضبة "أليسار". ثم ذكرته بوعده تسليمنا دبابة أو اثنين وذلك قبل بدء العمليات وقلت له لو أن عندنا ثلاثة دبابات لاستطعنا الوصول إلى المطار الجديد والسيطرة عليه وإنهاء المشكلة.

عن الموضوع الأول قال إنه سيرسل إلينا في الحال ثلاثمئة صاروخ كاتيوشا.

(وقد فعل ولكن شقيقه إبراهيم صادرها في الطريق، ولكن وصلت كميات أخرى فيما بعد. فكان حقاني هو مصدرنا الأساسي بالذخائر وليس القاعدة التي كانت قد وعدت بتحمل تلك المسؤولية).

وعن الموضوع الثاني فقال بأنه لن يستطيع إرسال أي دبابات إلينا بعد ما حدث بالأمس ويقصد خسارة دبابتين في الهجوم الفاشل.

شعرت بخيبة أمل من هذا التطور السلبي. فقد كنت مع "ابن عمر" قد بذلنا جهدا كبيرا لعدة أيام في مسح المنطقة شمال وجنوب النهر لاستكشاف إمكانية الاستفادة من الدبابات في عملنا.

كانت الإمكانية رائعة من وجهة نظرنا. وتركيزنا الأساسي كان على المطار الذي لا يحجبنا شيء، تقريبا، عن رؤيته.

وكانت ثقتي كاملة بالشاب اليمني "ابن عمر" ضابط الدبابات السابق في جيش اليمن الجنوبي. كان العدو بالفعل ضعيفا جدا في الجبهة الشرقية ولكننا كنا أشد ضعفاً. فمجموعتنا بالكاد تدير الراجمتين، وأشد ماكنت أخشاه هو أن تبادر قوة من ميليشيات العدو بمهاجمتنا بينما المنطقة تكاد تكون شبه خالية، وانشغل الجميع بالبحث عن الغنائم في ساحات الوادي، أو يتربصون الدوائر بأي عملية فتح جديدة حتى ينقضوا على ما فيها من غنائم.

كنت أتوقع أنه لو كان لدينا مئة مجاهد فقط تدعمهم دبابتان لتمكنا من الوصول إلى المطار الجديد بسهولة. ولو أن الجبهة الشرقية والجبهة الشمالية شهدتا أي قدر من النشاط الهجومي لانتهت المعركة في أسبوع واحد أو أقل.

- من شدة حماسنا لاستخدام الدبابات، بدأنا بالبحث الحثيث عن من يعطينا دبابة من الغنائم (أو الغلول) على أن نتكفل بكافة مصاريف التشغيل، أو دفع ثمنها كاملا إذا أصيب في العمليات.

أفراد "الكشافة " لدينا حضروا صباحاً فرحين، فقد ضبطوا دبابتين وسط الغنائم لدى مجموعة من البدو بالقرب من "باشيم ". واحدة منهما سليمة تماما والثانية معطوبة بشكل يمكن إصلاحه. على الفور أرسلت فريقا متعدد الجنسيات للتفاوض وإبرام صفقة معهم. فذهب حاجي إبراهيم الأفغاني وأبوطارق التونسي وابن عمر اليمني.

كان حاجي إبراهيم مفاوضًا بارعًا، يكسب قلوب مستمعيه ويستثير عواطفهم الدينية وعقولهم لكن بكل أسف لم يجد ذلك نفعاً مع إخواننا البدو. فتكلم قائدهم بجفاء قائلا له: "إن كلامك منمق وجميل ولا أدرى ماذا تخبئ خلفك. أنزل يدك من على الدبابة، فبعد قليل قد تدعي أنها لك". فعادت مجموعاتنا تجر أذيال الخيبة، وضاع تماما كل أمل لنا في استخدام دبابات.

- في الاتصال الثاني لحقاني معنا. كان يطمئن على أحوالنا. ثم سألني "لماذا لم تتقدموا إلى الأمام، فجميع الوحدات قد تقدمت". كان السؤال وجيهًا خاصة في وقت انتصار يقاس فيه النجاح بمقدار التقدم على الأرض. ولكن الأمر بالنسبة لمجموعتنا لم يكن كذلك. حاولت أن أشرح لحقاني الأمر بإيجاز فقلت له إننا لسنا في حاجة إلى التقدم طالما أن راجماتنا تصل إلى الأماكن التي نريدها. فإذا تحركنا لن نكسب من ذلك شيء بينما سنفقد مزايا المكان الذي نحن فيه، فهو يوفر لنا حماية لا بأس بها مع غارات الطيران تحديدا. فإذا تقدمنا إلى الأمام ستصبح في مناطق مفتوحة نتعرض فيها لمخاطر مؤكدة من الطيران.

فقال حقاني: هناك من يقول إن قذائفكم لا تصل إلى المطار.

فقلت له: إن قذائفنا تصل إلى الأماكن التي تحقق لنا الهدف المطلوب، وهذا يكفينا لأننا لا نجد أمامنا أماكن أفضل مما نحن فيه الآن.

كلام حقاني كان يشير إلى أن هناك من يطعن في عملنا عنده. وكان يشير أيضا إلى جزء من طبيعة موقفنا. فقد كانت راجماتنا تغطيان نظريا 60% من مساحة المدرج المواجه لنا - لكوننا على استقامة المدرج تقريبا.

إذن فهناك 40% من المدرج كانت خارج مدى الراجمات. التحرك إلى مجنبات المطار كان مستحيلا. لذا فإن التقدم إلى الأمام لتغطية باقي المدرج كان هو الإمكان الوحيد أمامنا. ولكننا استبعدنا ذلك الاحتمال لخطورته الشديدة بل والمؤكدة.

اكتفينا إذن بتغطية نسبة 60% من مدرج المطار لكون النسبة المتبقية لا تكفي العدو حتى يتم فيها عمليات الهبوط والإقلاع والتفريغ.

لم نكن في موقع متفوق بنفس القدر الذي كنا عليه أثناء عملية المطار القديم (المطار90) - ولكننا كنا في أفضل المواقع المتاحه لنا في تلك الظروف، مع نسبة خطر أعلى بكثير مما سبق، وأكثر مما يقبل به العقلاء في ظروف عادية.

ولو لم تنته المعارك بهذه القدر من النجاح لفزنا بالقدر الأكبر من اللوم والإدانة.

* * *